رسالتان حول التصوف

من أوربا وآسيا

بقلم الأستاذ

طه عبد الباقى سرور

رسالتان كريمتان تلقيتهما هذا الأسبوع ، يدوران حول رسالة التصوف الإسلامى الروحية ، والحضارة الأوربية المادية ، والومضات الفكرية العالمية ، التى تتلمس الطريق المضئ ، الطريق الذى يصل بالإنسان إلى فجر حياته الكاملة ، الحياة التى تسود فيها القيم والمثل ، ويطمئن فيها القلب ، وتسعد الروح ، حياة السلام والإيمان ، حياة الإنسان الكامل الربانى الذى بشرت به الأديان ، وصورته أحلام الفلاسفة والعلماء ، وتخيلته أقلام الشعراء والأدباء .

وفى الرسالتين حرارة تدفئ القلب ، وإيمان يسعد النفس ، وأفكار حية قوية ، جديرة بالتأمل والدراسة .

أما الرسالة الأولى ، فمن قلب أوربا ، من جنيف بسويسرا ، من الدكتور العالم الفاضل زكى على ، أدار فيها الكلام عن الإسلام والمسلمين ، والشرق والغرب ، الغرب الذى أقام فيه منذ تسع وعشرين سنة ، فلمس روحه ، وأحاط بعلمه ، وتذوق حضارته ، ثم وجد كل هذا . . قبض الريح ! ! !

لقد فقدت الحضارة الأوربية روحها ، لقد باعتها للشيطان ، لقد قام مقام القلب البشرى ، فى صدر كل أوربى ، الدولار والمدفع ، والآلة المدمرة ، والشهوة الجامحة .

لقد انطلقت الغرائز مسعورة ظامئة ، تعب وتنهل غير عابئة بشرف ، أو متمسكة بقيم .

و انطلقت الأفكار جامحة مجنونة ، تهدم كل نبيل شريف ، وتسخر من كل كريم مقدس .

لم تعد ترتبط بالله ، ولا تثق بالمثل ، ولا تؤمن بفضائل الروح ، وعواطف القـــلوب .

إنها تتعبد فى محراب نفسها ، وتتهجد فى ساحات الصراع الدامى ، وتقتات بالحقد الأسود ، وتحترق بلهب الشك والقلق .

إنها فى دوامة ، أبرز ما فيها اليأس المطلق ، إنها اشبه بالمنبت ، الذى لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى .

لم يعد لأوربا غد ، إنها تعيش ليومها ، لقد فقدت العمق النفسى ، والاطمئنان القلبى ، واليقين الإيمانى ، كما فقدت الحبل المتين الذى يربط الإنسان بالله ، فيربطه بالبقاء والخلود .

لقد انتهت رسالتها ، رغم الطاقة الذرية ، ورغم العظمة الآلية ، لأنها انحرفت وضلت وتفرقت بها السبل ، ودخلت فى تيه لا يعرف نور الله ، وما يفيض هذا النور من قوة ، ومن ثقة ، ومن سعادة ، ومن أمل مضىء مشرق ، هو سر الحياة ، وسر هذا الكون الكبير .

إن تسعة وعشرين عاما فى أوربا ، لم تقنع الدكتور زكى على بحضارتها وقوتها ، بل زادته إيمانا بربه وبدينه ، وزادته استمساكا واعتصاما بالتصوف الإسلامى وروحانيته ومثله وآدابه وأنواره وإلهاماته .

إن التصوف الإسلامى ، هو رسالة الغد للإنسانية كافة ، لأنه وحده الذى يملك الطاقات الروحية والإيمانية التى تعيد للقلوب أمنها ، والأرواح سلامها ، وللبشرية إنسانيتها ، إنه وحده الذى يمنح الحيارى الذين حطمهم القلق واليأس ، يمنحهم اليقين والأمل ، ويضع فى قلوبهم ، وفى أعينهم ، وفى أبعد عمق فى وجدانهم ، نور الله .

ولهذا كله ، يقبل الدكتور زكى على ، على التصوف الإسلامى ينهل من ينابيعه ، ويقتات بأنواره ، ويسعد بآدابه ، ويحس بإنسانيته المؤمنة المهتدية المطمئنة ، فى عالم من اليأس والقلق والفراغ .

أما ثناء الدكتور وأعجابه وتقديره لما أكتب وأنشر من دراسات وكتب ، فهو أدبه وفضله الذى جعله يحسن الظن ويجزل الثناء ، وشكرى له ليس موضعه هنا .

والرسالة الثانية ، من قلب آسيا ، من دلهى بالهند ، من العلامة الأستاذ أبو الحسن الدلهوى ، أدار فيها الحديث حول ما أكتب من دراسات صوفية ، لها وزنها وأثرها كما يقول ، وهو يسألنى : هل اعتقد أن التصوف هو الوجه الأكمل للإسلام ، الوجه الذى نواجه به الدنيا ؟ وندعو الإنسانية إليه ؟ ونقدمه للناس كافة ، لنعبر به عن رسالة القرآن ، وهدى الرسول ؟

ويقول سيادته ، إن التصوف هو معرفة ذوقية ، ومثاليات عليا ، تصلح للخاصة من الناس ، ولا تصلح كمنهج عام ، أو كدعوة إسلامية عالمية . ؟

أما أن التصوف هو الوجه الأكمل للإسلام ، فهذا حق لا مرية فيه .

فالتصوف فى جوهره ، هو الكمال فى العبادة ، وفى الأخلاق ، وفى المعاملة والسلوك العام ، كما أنه الكمال فى الفداء والتضحية ، مع تصعيد كل أمر من أمور الحياة إلى الله سبحانه .

تصعيد شرفه الأول ، الاجادة والاتقان ، وطهارة القصد ، واستهداف الخير للناس كافة .

فالصوفى هو من حقق فى نفسه ، وفى عمله ، وفى قوله ، وفى سلوكه ، وفى إنسانيته ، كل المعانى القرآنية ، كل المثاليات الإيمانية ، هو من استهدف القدوة الحسنة ، وتتبع آثارها ظاهرة وباطنة ، فقام جهد طاقته ، بأخلاق نبيه ومعاملاته وصفاته ، ومنهجه فى حياته .

أما أن التصوف ، معرفة ذوقية ، ومثاليات عليا ، تصلح للخاصة من الناس ، ولا تصلح كمنهج عام ، أو كدعوة إسلامية عالمية . ؟

أجل فى التصوف معرفة ذوقية الهامية ، ولكنها معرفة تستهدف آدابا فى السلوك ، وآدابا فى الرياضة الروحية ، وتذوقا خاصا فى الذكر والمناجاة والطاعة .

ولكنها معرفة مقيدة ذوقا والهاما بالكتاب والسنة وليس من أهدافها الاجتهاد فى الكليات الإسلامية ، إنما مجالها أن تستنبط آدابا فى الطريق ، ومنهجا

فى التربية ومعارج فى المجاهدة والرياضة ، وأن تتحدث عن أمراض القلوب ، وتلونات النفوس وعلاجها وتهذيبها والسمو بها .

ومصدرها فى استنباطها وذوقها كتاب الله وسنة رسوله . . كما استنبط الفقهاء واجتهدوا فى فروع الفقه من عبادات ومعاملات .

والتصوف مثاليات عليا ، يأخذ كل إنسان فيه بما يطيق ، ولكن هذه المثاليات يجب أن تبقى دائما فى أذهان الناس وتصوراتهم ، تمدهم دائما بالصور المضيئة ، والأخلاق الرفيعة ، والمبادئ النبيلة ، والإيمان القوى الحى .

يجب أن تبقى كأفق أعلى ، يعيش فيه من يعيش ، ويتطلع إليه من يتطلع .

تلك هى رسالة المثاليات ، ولا يمكن لدعوة أو لعقيدة ، أن تسود وأن تلهم وأن تخلد ، إلا إذا استهدفت ورسمت وصورت ، أسمى وأعلى ما فى الدنيا من أخلاق ، ومن مبادئ ، ومن مثل ، ومن إيمان ومن خير ونفع للناس .

ومن هنا أقول لصديقنا العلامة الدلهوى : أجل إن التصوف الإسلامى هو الرسالة التى يجب أن ندعو الإنسانية إليها ، وإنه ليعبر أصدق تعبير عن رسالة القرآن ، وهدى الرسول .

إن الحضارة الأوربية اليوم تلفظ أنفاسها الأخيرة ، لقد فقدت القيادة العالمية ، بل فقدت الأمل فى البقاء ، لأنها فقدت الإيمان ، وفقدت الروح والأخلاق ، وضاع منها الحبل الربانى الذى يربط الإنسان بالله .

ولن تجد الإنسانية نجاتها وهداها ، إلا عندنا ، وتلك رسالة التصوف اليوم .

رسالته التى يجب أن يؤمن بها ، وأن يدعو إليها ، وأن يعد نفسه للنهوض بها .

إن الفجر القادم هو فجر التصوف الإسلامى العالمى ، فجر الإخاء والرخاء ، والاطمئنان والإيمان .

الفجر الذى تتحقق فيه كلمات الله وتهيمن وتسود ، الفجر الذى جاءت به الأديان كافة ، ورفعت أعلامه رسالة خاتم النبيين وسيد المرسلين .

والله متم نوره ، ذلك قوله فى كتابه ، وهو أصدق القائلين ؟